أصداء الكورونا في شعر الدكتور بسيم عبد العظيم

د . وائل علي السيد

أستاذ مساعد بكلية التربية جامعة عين شمس

تتجلى صورة الواقع للشاعر ونراها واضحة في شعره ويصبح الشعر كأنه المرايا التي تلوح لنا فيها الصورة وتعكس وجه الحقيقة، بل إن الشاعر ليقر أن الواقع من الممكن رؤيته في مرآة، لأنه يعتمد في وصفه على المشاهدة.

ولم يزل الشعراء قديما وحديثا يتفاعلون مع الواقع الذي يعيشونه ويعبرون عن أزمة الإنسان، وقديما عصفت أوبئة كثيرة ببقاع شتى في العالم منها الطاعون الذي أصاب مناطق كثيرة عامرة بالبشر فأهلك أكثر من في الأرض، وطفق شعراء العرب في مصر والشام يصفون ما حل بالبلاد والعباد من دمار، وعبروا عن تلك المحنة التي فتكت بالإنسان ولم يكن له منها مفر، ومن هؤلاء عمر بن الوردي (ت 749 هـ)، وصلاح الدين الصّفدىّ (ت 764 هـ)، وجمال الدين محمد بن نباتة (ت 768 هـ).

انظر : النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ليوسف بن تغري بردي (ت 874هـ)، وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر، 10 / 211 .

ومما قيل في ذلك قول الشاعر جمال الدين محمد بن نباتة:

سر بنا عن دمشق يا طالب العي ... ش فما فى المقام للمرء رغبه

رخصت أنفس الخلائـق بالطّا ... عون فيها فكلّ نفــس بحبّه

وقول الشاعر جمال الدين إبراهيم المعمار :

قبح الطاعون داء ... فقدت فيه الأحبّه

بيعت الأنفس فيه ... كلّ إنســـان بحبّه

وله أيضا فى المعنى:

يا طالب الموت أفق وانتبه ... هذا أوان الموت ما فاتا

انظر : النجوم الزاهرة 10 / 212

وحديثا عاث الوباء في مصر فسادا، وأزهق آلاف الأرواح، وممن أسهم في تصوير مأساة من عانوها الشاعرة العراقية نازك الملائكة في قصيدتها المشهورة (الكوليرا) التي

قالتها عام 1947م، ونشرتها في ديوانها "شظايا ورماد" المطبوع سنة 1949م، وقد حاولت فيها التعبير عن أحوال الموتى من ضحايا الوباء في ريف مصر، ومنها :

في شخص الكوليرا القاسي ينتقم الموت
الصمت مرير
لا شيء سوى رجع التكبير
حتى حفّار القبر
ثوى .. لم يبق نصير
الجامع مات مؤذنه
الميت مَنْ سيؤبنه ؟
لم يبق سوى نوح وزفير
الطفل بلا أم أو أب
يبكي من قلب ملتهب
وغدا لا شك الداء الشرير سيلقفُه

نشرتها مجلة "العروبة" بيروت في عددها الصادر في أول كانون الأول 1947 ، وانظر (شظايا ورماد)، لنازك الملائكة. الطبعة الأولى – بغداد 1949 ص97.

وشاعرنا الذي نقف عند بعض قصائده هو الدكتور بسيم عبد العظيم أستاذ الأدب والنقد بجامعة المنوفية، له عدد من دواوين الشعر منها ديوان (هموم وأشجان) 2004م، و (لو تطلبين العمر) 2011م، والشعر يجري على لسانه سلسلا عذبا دون تكلف، كما أنه ناقد متميز بدراساته وبحوثه المتعددة، وقد كُتبت عن شعره دراسات وأبحاث كثيرة منشورة في مجلات علمية محكمة، ويمتاز بقدرته الفائقة على مسايرة الأحداث والمشاركة في المناسبات المختلفة والمتعددة، وهو مقرر اللجنة الفكرية باتحاد كتاب مصر، ونائب رئيس فرع اتحاد كتاب مصر بالمنوفية، وعضو رابطة الأدب الإسلامي العالمية، وكثير من الكيانات الثقافية والأدبية .

ولقد وصف الشاعر الظواهر والأحداث المصاحبة لأزمة الكورونا والناجمة عنها ، ورسم صورة للمجتمع الذي يعاني من الوباء، وكان حريصا على إبراز الأزمة من خلال ظروف الحياة اليومية، لقد اعتاد الخروج للعمل ولقضاء حاجاته الضرورية وركوب المواصلات، والتردد على المساجد وأداء الصلوات، وإذا به يعجز عن كل هذا ويضطر إلى لزوم بيته هربا من الموت الذي يحاصره في كل مكان .

واستطاع أن يصور أزمة الانسان وضعفه وعدم قدرته على مواجهة هذا الكائن الضعيف الذي لا يرى بالعين .

فأراه الإله أضعف جند لا يرى بالعيون فهو حقير

وتظهر المفارقة بوضوح في هذا الموقف الذي يقف فيه المرء المتكبر الذي يتباهى بقوته عاجزا أمام المخلوق

فتوارى منه الجبابر رعبا لاذ بالبيت سيد وصغير

ثم يقول :

سنة الله في الذين تولوا جاءهم أمره المهول المبير

وهو هنا يتناص مع قوله تعالى : " سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا " سورة الأحزاب (62)

وأبرز قيمة أخلاقية تتضح أصداؤها هنا هي الروح الإيمانية التي تسيطر على نفس الشاعر، واللجوء إلى الله والعياذ به؛ طلبا للطف وكشف الضر ، يقول :

ربنا الطف بنا فإنا أنبنا أنت يا ربنا اللطيف الخبير

واكشف الضر يا إلهي فإنا لك عدنا وقد أتانا النذير

ويقول في قصيدته (درس الكورونا) 15 / 4 / 2020

ألا لله إنا راجعونا لأنا مسلمون ومؤمنونا

فلا نخشى من الفيروس حتى وإن كان الذي نشروا كرونا

والشاعر هنا يبدأ القصيدة بتناص لافت للنظر مع قوله تعالى " «إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ» ، وهذا البدء يوحي بأن الخطب جلل، وأن المصاب فادح، وأن ما قرره الله واقع لا محالة، ولا داعي للخوف، والذي يبعث على الطمأنينة التي تملأ نفس الشعر كونه

مسلما ومؤمنا، وليس عطف (مؤمنا) على (مسلما) اجترارا لقافية ، ولكنه استيعاب لضرورة الإيمان في تلك اللحظة العسيرة التي عم فيها البلاء وانتشر الوباء، وأصبح الموت حقيقة لا مراء فيها.

وقد استدعى الشاعر قول الله تعالى " قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ " سورة الحجرات 14

واستدعى أيضا قول رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنِ اسْتَرْجَعَ عِنْدَ الْمُصِيبَةِ، جَبَرَ اللَّهُ مُصِيبَتَهُ وَأَحْسَنَ عُقْبَاهُ، وَجَعَلَ لَهُ خَلَفًا صَالِحًا يَرْضَاهُ» المعجم الكبير للطبراني رقم 13027 ، 12 / 255

ثم يسوق الشاعر الحكمة تلو الحكمة، ويتناول الدروس المستفادة من هذا الحدث الخطير وهو انتشار الوباء ، مبينا ضعة شأن الانسان وضعفه أمام قضاء الله ، وأن سبب هذا الابتلاء هو الطغيـــان والظلم والفساد ، وكأنه عقاب أنزله الله على أهل الأرض بما كانوا يكسبون ، يقول :

طغى الإنسان طغيـانا كبيـرا وعاث الماكـرون المفسدونا
وراحـوا يملأون الأرض ظلما فبئـس القوم قـوم قاسـطونا
لأجل المال باعوا الدين بخسا فراحوا يسرقـون وينهبـونا
فما أغنـت قنابلـهم فتيـلا ولا عاشـوا بخيـر سالمينا

وكما تتوالى الحكم يتوالى التناص القرآني ، فقول الشاعر: " طغى الإنسان " يتناص مع قوله تعالى : " كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ، أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى " سورة العلق 6 ، 7 ، وقول الشاعر : " فبئـس القـوم قوم قاسـطونا " يتناص مع قوله تعالى : " وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا (14) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا " سورة الجن 15، وقول الشاعر : فما أغنـت قنابلـهم فتيـلا " يتناص مع قوله تعالى : " أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يُزَكُّونَ أَنْفُسَهُمْ بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَلَا يُظْلَمُونَ فَتِيلًا " سورة النساء 49، والفتيلُ مَا كَانَ فِي شَقِّ النّواة، وَبِه سُمِّيت فَتيلةُ السراج ، وقيل: إن الفتيل ما يفتل بين الأصبعين.

وَأنْشد أَبُو بكر الإيادِيّ:

فقدتُكَ من بَعْلٍ عَلاَم تَدُكُّني بصَدْرِك لَا تُغْني فَتيلاً وَلَا تُعْلي

وفَتِيلًا يعني: الشيء القليل الحقير ، أو أدنى شَيْء.

ثم يقول الشاعر بسيم

أراد الله تأديبا لقـوم بكون الله عاشـوا مفســدينا

ببَـرٍّ أو ببحـرٍ أو بجـوٍ فساد ظاهرٌ لـو تعلمونا

بِما كَسَبَتْ أَيْادِي النَّاس ذوقوا بما عملوا عساهم يَرْجِعُونَا

وقد ظهر تأثره بالقرآن الكريم جليا في تلك الأبيات التي يتناص فيها مع قوله تعالى : " ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِما كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ " سورة الروم: 41 ، وتظهر فلسفة الشاعر وتفسيره لهذا الوباء في كونه تأديبا لقوم عاشوا مفسدين بكون الله فاستحقوا العقاب.

ثم يشير الشاعر إلى أهم مظاهر تأثر المجتمع المسلم بالوباء وهو تعطيل صلاة الجماعة، وعدم القدرة على دخول المسجد، وهو مما آلم المسلمين وآذى نفوسهم، بل مما أحزن عامة الناس لزومهم البيوت وعدم القدرة على مغادرتها إلا للضرورة القصوى، يقول:

بيوت الله تشكو الهجر منا ونحن لهجرها متألمــونا

بقعرِ بيوتِنا صرنا قعودا وكنا قبل ذلك مُبعَــدونا

ثم يختم الشاعر قصيدته بتفسير آخر لآثار الوباء مبينا أن ما حدث من ترك للمسجد ولزوم للمنازل ربما يكون خيرا ، ويدعو للعودة إلى الله واتباع أوامره والانتهاء عن نواهيه ، فهذا هو الطريق الوحيد ليرفع الله البلاء ويزول الوباء، يقول :

عسى خير يصيب وقد كرهتم فكان الخير فيما تكرهونا

إذا عدتم لرب الكون حقا سيكشف عنكمو ضر الكرونا

ويظهر هنا التناص واضحا مع قوله تعالى : "وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ " سورة البقرة 216، وقوله تعالى : " وَما بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ثُمَّ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْئَرُونَ ، ثُمَّ إِذا كَشَفَ الضُّرَّ عَنْكُمْ إِذا فَرِيقٌ مِنْكُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ " سورة النحل 53 ، 54

وقال الشاعر بسيم عبد العظيم يرثي صديقا له :

مات الصلاح بموت عم صلاح ودعاؤنا لينال كل فلاح

في جنة الفردوس جنب المصطفى بشرى له بشهادة ونجاح

من مات في الطاعون كان شهيده والموت حق دون أي جناح

ونلاحظ أن الشاعر يربط بين الموت وأسبابه التي منها الطاعون ، ويستدعي حديث النبي الكريم الذي رواه أَبو هُرَيْرَةَ، وهو قوله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا تَعُدُّونَ الشَّهِيدَ فِيكُمْ؟» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، قَالَ: «إِنَّ شُهَدَاءَ أُمَّتِي إِذًا لَقَلِيلٌ»، قَالُوا: فَمَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «مَنْ قُتِلَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي سَبِيلِ اللهِ فَهُوَ شَهِيدٌ، وَمَنْ مَاتَ فِي الطَّاعُونِ فَهُوَ شَهِيدٌ ... " مسلم رقم 165 ، 3 / 1521

ويقول الدكتور بسيم متفكها :

شاقك العزل مع أتانك فاهنأ جاءك التبن سائغا والشعير

واسترح من عناء حمل ثقيل جاء كوفيد فاستراح الحمير

ولا بد من الإشارة هنا إلى أن الشاعر اهتم بإبراز الجو المكاني، فالحمير سكنت مكانا معزولا يجتمع فيها الذكور والإناث، وقد عانت من الجهد الذي بذلته مع الفلاح في الحقل، فجاء كوفيد فأنقذه مما هو فيه ، وتكتمل صورة المكان بما فيه من معالم قروية ، ترسمها الكلمات (أتان – التبن – الشعير – الحمير) ويرسم الطباق صورة حية لحياة الحمير من خلال الكلمتين (استرح – عناء) ، وإضافة (حمل ثقيل) فيه تكثيف لتلك المعاناة ، وإذا كان الوباء شرا على البشر فهو خير للحمار ، لذا يبشره الشاعر ، وتشخيص الحمار وإلباسه ثوبا بشريا مستوحى من واقع الريف، فالفلاح يخاطب الحمار ويستحثه على السير، ويدعوه الى التوقف، ويطلب منه الانتظار وهكذا.

وقوله شاقك بمعنى أحببت يتناص مع قول الأمير عبد الرحمن بن الحكم بن هشام صاحب الأندلس حين خرج في بعض أسفاره، فطرقه خيال جاريته طروب أم ولده عبد الله، وكانت أعظم حظاياه عنده وأرفعهن لديه، ولا يزال كلفاً بها هائماً بحبها، فانتبه وهو يقول:

شاقك من قرطبة الساري ... في الليل لم يدر به الداري

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب : لشهاب الدين المقري التلمساني 3 / 613

،،،،،،،،،،،،،،،،،،

أما أصداء الكورونا في لغة الشاعر فقد أظهرتها المفردات المتفردة التي استعملها والتي تناسب الموقف والظروف التي تمر ، ومنها كلمة (العزل) في قوله :

شاقك العزل مع أتانك فاهنأ جاءك التبن سائغا والشعير

وكلمة (كوفيد) في قوله :

واسترح من عناء حمل ثقيل جاء كوفيد فاستراح الحمير

وكلمتا (كورونا – الفيروس) في قوله :

فلا نخشى من الفيروس حتى وإن كان الذي نشروا كرونا

وتتكرر كلمة (الكرونا) مرة أخرى في قوله :

إذا عدتم لرب الكون حقا سيكشف عنكمو ضر الكرونا

وأرجو أن تكون هذه السطور قد تجلت فيها أصداء الوباء في شعر الشاعر الدكتور بسيم عبد العظيم ، الذي لا تزال قريحته تجود بإبداعات متألقة متلاحقة وننتظر منه المزيد.

وائل علي السيد

2020 / 7 / 1